

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

رياض الصالحين - الدرس : 046 - باب التقوى - ثمار التقوى - شبكة الضعف التي يقع فيها ابن آدم وحصنه منها منافذ الشريعة الإسلامية

07-03-1998

الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين, اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم, اللهم علمنا ما ينفعنا, وانفعنا بما علمتنا, وزدنا علماً, وأرنا الحق حقاً, وارزقنا اتباعه, وأرنا الباطل باطلاً, وارزقنا اجتنابه, واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه, وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

عادة أدرج عليها :

أيها الأخوة الكرام، من عادتي في التدريس: أن يكون لكل عام منهج، ففي العام الماضي كان هناك كتاب مختارات في الأحاديث الشريفة، للشيخ أحمد الهاشمي، وفي هذا العام أردت أن نأخذ كتاباً هو كتاب رياض الصالحين، هو من أعظم الكتب التي ألفها الإمام النووي رحمه الله تعالى، وهذا الكتاب ينطوي على أحاديث رسول الله الصحيحة، وقد بويت وفق موضوعات يحتاجها كل مسلم، وبدأ الإمام رحمه الله تعالى كل باب بالآيات التي تتعلق بهذا الباب، ثم يأتي بالنصوص الصحيحة من كتب البخاري ومسلم التي تنتمي إلى هذا الباب، وفي كل درس إن شاء الله نختار أحد الأبواب، نقف عند الآيات المتعلقة بهذا الباب، ثم بعض الأحاديث التي تشتد الحاجة إليها في هذا الموضوع .

إليك هذه الآيات التي أرشدنا إليها النووي في كتابه مع تفسير معانيها :

أيها الأخوة الكرام، من أبواب هذا الكتاب: باب التقوى، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[سورة آل عمران الآية: 102]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

[سورة النساء الآية: 136]

يعني حق الإيمان .

قال بعض أصحاب رسول الله في شرح هذه الآية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾

[سورة آل عمران الآية: 102]

أن تطيعه فلا تعصيه، وأن تذكره فلا تنساه، وأن تشكره فلا تكفره .
وفي آية أخرى:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾

[سورة التغابن الآية: 16]

وقد يفهم بعض الناس هذه الآية على معنى ما أَرَادَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، يعني اتقوا الله ما استطعتم، بالحد الأدنى، لكن الله عز وجل يقول:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾

[سورة التغابن الآية: 16]

بالحد الأعلى، فالآية تحمل على حدها الأعلى، لا على حدها الأدنى، والإنسان وحده يعلم مدى استطاعته، ولن تستطيع أن تكذب على جهتين، لن تستطيع أن تكذب على نفسك، لأن الله عز وجل يقول:

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾

[سورة القيامة الآية: 14]

لن تستطيع أن تكذب على الله، قال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾

[سورة النساء الآية: 142]

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾

[سورة الحاقة الآية: 18]

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾

[سورة غافر الآية: 19]

خائنة الأعين لا يمكن لبشر أن يعرفها، مستحيل، جالس في البيت، النافذة مفتوحة، أمام النافذة شرفة الجيران، خرجت الجارة بثياب متبذلة إلى الشرفة، وأنت في مكان معتم، وهي في مكان مشرق، وليس في الأرض كلها إنسان، يستطيع أن يضبطك بهذه النظرة إلا الله.

أنت طبيب، مريضة بين يديك، تشكو جهة في جسمها، لك أن تنظر إلى مكان الشكوى، أما إذا نظرت إلى مكان آخر، من يستطيع أن يكشف هذه النظرة الثانية؟ الله وحده، لذلك:

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾

[سورة غافر الآية: 19]

إِذَا:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾

[سورة التغابن الآية: 16]

في الحد الأعلى .

والآية الثالثة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾

[سورة الأحزاب الآية: 70]

إذا قلتم قولاً سديداً، فهذا القول السديد طريق إلى تقواكم .

منعطف خطير :

أيها الأخوة،

((قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: تُكَلِّمُكَ أُمَّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَانِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟))

[أخرجه الترمذي عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فِي سَنَنِهِ]

عن عائشة قالت:

((حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَقَالَ: مَا يَسْرُنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةً، وَقَالَتْ: بِيَدِهَا هَكَذَا، كَأَنَّهَا تَعْنِي فَصِيرَةٌ، فَقَالَ: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمَزَجَ))

ما بال المسلمين في سهراتهم غيبة، ونميمة، واستهزاء، ومحاكاة، وتنتهي الجلسة ب: الله يتوب علينا، لم نعمل شيئاً، هو ارتكب كل الكبائر، فالغيبية من الكبائر .

قف عند معاني هذه الآية :

أيها الأخوة، أما قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾

[سورة الطلاق الآية: 2]

3

باب التقوى - ثمار التقوى- شبكة الضعف التي يقع فيها ابن آدم وحصنه منها منافذ الشريعة الإسلامية

تؤلف حول هذه الآية مجلدات؛ من يتق الله: يعني من يطع الله، يجعل له مخرجاً: لك أن تفهمها فهما مطلقاً، ولك أن تفهمها فهما مخصصاً، من يتق الله في اختيار زوجته، يبحث عن ذات الدين، يجعل الله له مخرجاً من الشقاء الزوجي، من يتق الله في تطليق امرأته، يطلقها طليقة واحدة ويندم، يجعل الله له مخرجاً لإرجاعها، القضية سهلة، من يتق الله في تربية أولاده، يجعل الله له مخرجاً لعقوقهم، من يتق الله في كسب ماله، يجعل الله له مخرجاً من إتلاف المال.

((ما تلف مال في بر وبحر إلا بحبس الزكاة))

من يتق الله في عينه، يجعل الله له مخرجاً من فقد البصر، عينان لا تمسهما النار، يقاس عليها عين تغض عن محارم الله، نرجو الله سبحانه وتعالى في الأعم الأغلب: أن الله لن يفجعك فيها، أذن لا تسمع إلا الحق، نرجو الله عز وجل ألا يفجعك بها، لسان يذكر الله، نرجو الله عز وجل ألا يفجعك به، قدمان تنقلانك إلى المسجد، نرجو الله عز وجل ألا يفجعك بهما، يدان تتصدقان، هذه الأعضاء، والحواس، والجوارح، إذا كانت في طاعة الله ترتك ولا ترثها.

((وَمَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوتِنَا مَا أَحْيَيْتِنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا))

هم يرثون صاحبهم، وليس صاحب هو الذي يرثهم .

ومعنى مخرجاً: لم يكن هناك مخرج، لو فرضنا مكاناً فيه عشرة أبواب، لا تحتاج إلى مخرج، متى تحتاج إلى مخرج؟ حينما تغلق الأبواب كلها، حينما تسد المسارب كلها، فأنت متى تشعر أنك بحاجة إلى مخرج؟ إذا ضاقت عليك الأمور، لذلك قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾

[سورة الطلاق الآية: 2]

إن كان في ضائقة، حلقاتها مستحكمة، صدق القائل:

نزلت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظن أنها لا تفرج

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

[سورة الطلاق الآية: 2 - 3]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾

[سورة الأنفال الآية: 29]

في قلبك نور؛ ترى الحق والباطل، ترى الخير والشر، ترى الجمال والقبح، هذا النور أحد ثمار التقوى. هذه الآيات بشرح مختصر .

أبيها الأخوة, أما الأحاديث: فعن أبي هريرة رضي الله عنه:

((قيل: يا رسول الله, من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم, فقالوا: ليس عن هذا نسألك, قال: فيوسف نبي الله, ابن نبي الله, ابن نبي الله, ابن خليل الله, قالوا: ليس عن هذا نسألك, قال: فعن معادين العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا))

أي أعظم الناس بمقياس الدنيا أغناهم, بمقياس الدنيا أقواهم, بمقياس الدنيا أشدهم صحة, بمقياس الدنيا أكثرهم وسامة, بمقياس الدنيا أكثرهم ذكاء, الذكاء, والوسامة, والقوة, والغنى, هذه مقاييس الدنيا, مقياس الله عز وجل: قيل:

((يا رسول الله, من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم))

والدليل:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

[سورة الحجرات الآية: 13]

فقط: عند الله مقياس واحد .

عن أبي هريرة, أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

عن أنس بن مالك قال:

((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كم من أشعث أعبر ذي طمرين لا يؤبه له, لو أقسم على الله لأبره منهم: البراء بن مالك))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أنس بن مالك]

كنت مرة في فندق في المغرب, كان هناك مؤتمر إسلامي, حضرته عند الفجر, سمعت قراءة قرآن رائعة جدا, أطللت من الشرفة, وجدت مستخدم الحديقة, يصلي بصوت عذب, وكان الله سبحانه وتعالى يتجلى عليه, والله شعرت أن هذا المستخدم, الذي يعمل في تقليم الحشائش في الحديقة, ربما كان عند الله أرقى من كل نزلاء الفندق, والفندق فخم جدا.

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ))

دخل على النبي رجل من أصحابه, وقف له, عجب القوم! قال له:

((أهلا بمن خبرني بقدومه، قال: أو مثلي؟ قال: نعم يا أخي، حامل في الأرض، علم في السماء))

أحيانا يكون الإنسان شرا من الدواب، والدليل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾

[سورة البينة الآية: 6]

يعني شر ما برأ الله، إذا: قد تجد يركب دابة، المركوبة أكرم على الله منه، الدابة، قال تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

[سورة الجمعة الآية: 5]

فَقَالُوا: لَيْسَ عَنَّا هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنُ خَلِيلِ اللَّهِ -الكريم ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، فيوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله- قَالُوا: لَيْسَ عَنَّا هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَعَنْ مَعَاذِنِ الْعَرَبِ نَسْأَلُونَ؟ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَفَهُوا))

أحيانا: تجد إنسانا لم يصطلح مع الله بعد، لم يلتزم، لكن في قلبه رحمة، لكنه لا يأكل أموال الناس بالباطل، لا يكذب عليهم، ولم يصطلح مع الله بعد، هذا الإنسان الأخلاقي الذي في قلبه رحمة، دع كل أملك فيه، وخذ بيده إلى الله، وابتعد عن إنسان، يقوم بكل الالتزامات، ونفاقه واضح، فقال عليه الصلاة والسلام:

((خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَفَهُوا))

الحقيقة: ففَهُوا بمعنى عرفوا الحكم، أما ففَهُوا أصبَحُوا فقهاء، إذا كان الإنسان في الجاهلية، وعرف الله عز وجل، كان خيرا، خيره يستمر في الإسلام .

نقطتا الضعف عند الإنسان هما :

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

﴿إِنَّ الدُّنْيَا خُلُوةٌ خَصِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ﴾

زاد في رواية:

((فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَتْ فِي النِّسَاءِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح والنسائي في سننه عن أبي سعيد الخدري]

أنا أقول لكم هاتين الكلمتين: هناك مزلقان، هناك مطبان، هناك لغمان، هناك انحرافان، هناك كلابتان، يأخذان المؤمن، ويلقيانه في الهاوية؛ المال والنساء، وفي الإنسان نقطتا ضعف هما: المال والنساء . فإن أردت أن تغري إنسانا؛ فإما بالمال، وإما بالنساء، فمن حصن نفسه ضد هاتين النقطتين، فقد سلم

دينه؛ المال والنساء، كم من حالة فاحشة سببها خلوة؟ وكم من حالة زنا سببها صديق سوء؟ وكم من فجور سببه: شيء تشاهده أو تقرأه، لا يرضي الله عز وجل؟ فالمؤمن ما لم يبتعد عن كل المثيرات . وبالمناسبة: موضوع النساء ليس هناك نهي عن الزنا أبداً، هناك نهي عن أن تقترب من الزنا، لأن هذه المعصية لها قوة جذب، هناك منطقة خطرة بينك وبينها، فإذا لم تجعل بينك وبين هذه الفاحشة هامش أمان طويل، فهناك انزلاق كبير، وأعلم من القصص ما لا يعد و لا يحصى عن أناس، زلت أقدامهم بخلوة، أو بتساهل في حكم شرعي، فإذا هذا الحكم، ينقله إلى الهاوية .

هذه الشهوة لها خصوصية، أدق خصوصية هذه الشهوة، هذا البحث العلمي الذي اكتشفه عالم في أمريكا، لا يفقه عن ديننا شيئاً: الإنسان إذا استثير جنسياً، الدماغ يفرز مادة تعطل المحاكمة، يكون إنساناً محترماً جداً، مكرماً جداً، عنده أولاد، عنده أصهار، له مكانة، يقع في خلوة مع امرأة، فتزل قدمه، طيب أين عقله؟ قد تكون هذه أقل من زوجته بمئات المرات، لماذا زهد في هذه المرأة التي هي حل له، وزلت قدمه مع امرأة دونها بكثير، وفي الحرام؟ أين محاكمته؟ تعطلت، لذلك:

((ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما))

مرة في قضية تحتاج إلى أخ، يعمل في المحاماة، فلي صديق قال لي: زرت محامياً شكاه من زوجته، من هي زوجته؟ محامية، كانت تعمل عنده في المكتب، كان كل شيء قبل الزواج بخمس سنوات، هذه خلوة مخيفة جداً، ليس هناك مزح بالموضوع .

فلان قريبتنا، ولا أحد في البيت، لا تقل لها: تفضلي، الأهل غير موجودين، لا تؤاخذينا، هذا المؤمن، يأخذ موقفاً .

فهناك نقطة ضعف في الإنسان: المرأة والمال، فكل إنسان يحصن نفسه من النساء و من المال يسلم بدينه .

اعلم هذه الحقيقة :

أيها الأخوة، مرة ثانية أقول لكم: ليس هناك شهوة أودعها الله في الإنسان، إلا جعل لها قناة نظيفة.

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه و دنياه))

وإذا كان شاباً لم يتزوج بعد، أعطيك هذا المثل، ولكن احفظوه: كلما رأيت امرأة في الطريق، فغضضت البصر عنها، كأنك وضعت ليرة ذهب في صندوق مقفل، تُعطى مفتاحه عند الزواج، تفتح، فتجد مئة ألف ليرة ذهباً، مستحيل لشاب يغض بصره عن محارم الله، وتكون حياته الزوجية كشاب متفلس قبل الزواج، هذا يتناقض مع وجود الله، لقوله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

[سورة الجاثية الآية: 21]

مستحيل أن تكون حياة المستقيم كحياة المنحرف، حياة العفيف كحياة غير العفيف، حياة الصادق كحياة الكاذب، ليس في الآخرة، في الآخرة بديهية، في الآخرة شيء مفروغ منه ، يوم الدينونة، في الدنيا الدنية، قال تعالى:

﴿سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾

[سورة الجاثية الآية: 21]

إذا استوى هؤلاء مع هؤلاء، هذا يتناقض مع وجود الله، لا مع عدالته، مع وجوده، فلا تخف .

((ما ترك عبد شيئا لله إلا عوضه الله خيرا منه في دينه ودنياه))

سمعت عن أخ من أخواننا الكرام، جاءته فرصة وكالة أجهزة معينة، قد لا ترضي الله عز وجل، و الوكالة أرباحها خيالية، فيها أجهزة قد تستعمل استعمالا لا يرضي الله عز وجل، ركلها بقدمه، ففتح الله عز وجل له بابا آخر، أفضل منه بكثير، الله موجود، تضحي من أجله ثم تخسر؟ هذه أخلاق الله عز وجل؟ تضحي من أجله فتخسر؟ خفت من معصية، فيكون الذي اقترفها أحسن منك؟ ليس هناك عدالة، والدين باطل .

هذه آية أخواننا الكرام، أتمنى عليكم أن تكون محفورة حفرا في أذهانكم، قال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

[سورة الجاثية الآية: 21]

وقال تعالى:

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾

[سورة السجدة الآية: 18]

وقال عز وجل:

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

[سورة القلم الآية: 35 – 36]

والله لو أن هناك وقتا لهذه الآية، عندي فيها ألف قصة معاصرة، مستحيل أن تستقيم وتخسر، مستحيل أن تعصي وتربح، مستحيل أن تطيع الله ويدلك الله، مستحيل أن تعصيه و يعزك .

استيقظ من هذا الحلم :

أيها الأخوة، هناك مطبات، وهناك حبل مرخي أحيانا، مرخي إلى حين، حتى القوى الكبرى في العالم التي تعيش على أنقاض الشعوب، هذه القوى الكبرى لا بد من يوم تدفع فيه الثمن باهظا، هناك إله موجود، إما أن تؤمن بإله، أو تقول: ليس هناك إله، إذا لم يكن هناك إله، معنى ذلك أن القوى الكبرى تفعل ما تشاء، أكثر الناس مساكين، يظنون أنهم يفعلون ما يشاؤون، ما عظم الناس شيئا إلا وضعه الله، وعرفت الله من نقض العزائم، هذه مسلمات الدين، قال الله عز وجل:

﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾

[سورة إبراهيم الآية: 27]

أمر وقع :

قلت لكم مرة في رمضان الماضي: اليهود قاتلهم الله، عندهم مئة وخمسة وعشرون ضابط كوماندوز من أعلى مستوى، كلف كل واحد خمسة ملايين دولار تدريبات من عشرين سنة، أرادوا أن يرسلوا طائرة إلى جنوب لبنان، ليعتقلوا المسلمين ليلة القدر، ما الذي حصل؟.

وقعت طائرة فوق طائرة، فماتوا جميعا، وما عرفوا اليهود منذ أن أسسوا دولتهم في فلسطين بخسارة أكبر من هذه الخسارة، مئة وخمسة وعشرون ضابطا، وجدوا الصندوق الأسود للطائرة العليا، آخر كلمة قالها الطيار: أنا أسقط، ولا أدري لم أسقط في ليلة القدر؟! و الله قال:

﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ﴾

[سورة القدر الآية: 5]

أناس في المساجد، تريدون مفاجأتهم بخطف، غير معقول .
وسمعت من صديق لي، كان طبيبا في الحرم المكي، إمام الحرم، رجل صالح (السديس)، صالح جدا، وبكاء، دعا ربع ساعة، في أثناء الربع ساعة، وقعت الطائرتان، إذا تدخل الله، فشيء مخيف، لكن إذا تدخل لصالحنا على ما نستحق، أن يتدخل الله لصالحنا .
وأنا أكثر دعاء أدعو به في الخطبة:

((اللهم انصرنا على أنفسنا، حتى نستحق أن نتصرنا على أعدائنا))

لأن المعركة بين حقين لا تكون، لأن الحق لا يتعدد، والمعركة بين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، أما بين باطلين فلا تنتهي .

إذًا:

((إِنَّ الدُّنْيَا خُلُوعٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَى إِسْرَائِيلَ، كَانَتْ فِي النَّسَاءِ))

ما هي العبرة التي نستنبطها من هذه القصة؟:

هناك قصة ذكرتها سابقا، ولكن الآن مناسبتها: فاتقوا الدنيا، الدنيا في أولها مبهرة، في وسطها هذا اللمعان يخف، أما في آخر الدنيا ليست بشيء، شيء ساقط، فمن السعيد؟ الذي عرفها في أول حياته، عرف حجمها الحقيقي، الإنسان يؤخذ بها في أول حياته، في وسط حياته المال شيء، لكن ليس كل شيء، في أول حياته المال كل شيء، المرأة كل شيء، في الوسط، هذا من دون طلب علم، شخص عادي، من دون طلب علم، من دون خصوصية، مثل عامة الناس، أول الحياة المال شيء مهم جدا، والمرأة مهمة جدا، لكن في الوسط شيء، وليس كل شيء، أما على شفير القبر، أو على فراش الموت، ليسا بشيء .

فكان لي صديق توفي رحمه الله، يشتغل صانعا في الحميدية في محل تجاري، فكان عنده دعابة، يكنس المحل، ويضع القمامة في علبة فخمة، ويلف العلبة بورق الهدايا، لهما بشرط أحمر، ويعقده، ويضع العلبة على طرف الرصيف، يمر واحد، فيرى العلبة، ويظن أن فيها شيئا ثمينًا، لعله يكون فيها عقد ألماس، أو فيها شيء ثمين، عطر، أو جرابات فرضا، أقل شيء فيها مبلغ ثلاثمئة ليرة، يأخذها المار ويسرع، فيلحق به هذا الشخص، بعد منتهي متر يفك شريطها، وبعد منتهي متر يفك الورق، بعد منتهي متر الثالثة يفتحها، فيجد زبالة المحل، يسب، ويصيح .

هذا الرجل عنده هذه الدعابة، وهذا مثل مضحك صارخ، ولكن والله الدنيا كذلك، والله على فراش الموت، يراها ليست بشيء، شيء سخي .

((الدنيا جيفة، طلابها كلابها، الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له))

فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً))

[أخرجه الترمذي في سننه عن سهل بن سعد الساعدي]

كنت في أمريكا، رأيت من الزينة والفخامة، الشيء الذي لا يصدق، والله مجلس علم هنا، مسجد هنا، يرفع فيه الأذان، صلاة تتعقد مع الله عز وجل، حقيقة تعرفها عن الله، جلسة مع أهلك وأولادك، والله خير من الدنيا وما فيها، ولكن لا أحد يعرف، لها بريق، أما العبرة أن ترى الحقيقة .

أحيانا: يكون الواحد مغمض العينين، يضع يده على أفعى، ملمس، ناعم، شكل انسيابي، إذا فتح عينيه، ووجدها أفعى، يخرج من جلده، فالعبرة أن تفتح عينيك، العبرة أن ترى الحقيقة، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[سورة الحديد الآية: 28]

العبرة: أن يكون في قلبك هذا النور .